

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور، أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد يُحيي و يميت و هو على كل شيء قدير. و أشهد أن محمداً عبده و رسوله، خير الخلق و البشر. أشهد أنه بَلَّغَ الرِّسَالَةَ و نصَحَ الأُمَّةَ و دَعَى إلى الله حتى أتاه اليقين. صلى الله عليه و سلم، و على آله و أصحابه، و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين و سلم تسليماً كثيراً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ النساء: ١

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ آل عمران. 102

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧١﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ الأحزاب: ٧٠ - ٧١

أما بعد:

ألا إن خير الكلام كلام الله، و خير الهدي، هدي محمد بن عبد الله. و إن شر الأمور محدثاتها و كل مُحدثَةٍ بدعة و كل بدعة ضلالة و كل ضلالة في النار.

عباد الله، في شريعتنا الحنيفية السّمة أخلاق عالية، وأدب عظيم، وفضائل عِدّة، لكنّ المصيبة غفلة كثير من المسلمين عن هذه الأخلاق والقيم، و تناسيهم لها، و عدم عمَلهم بها، فينشأ النشء من غير أن يقيم لتلك الأخلاق وزناً، و كان المطلوب منا جميعاً أن نربي نشأتنا التربوية الإسلامية الصحيحة على الأخلاق الإسلامية والقيم الإسلامية، التي يسعدُ بها الفرد في حياته و آخرته.

و من هذه التربية و الخصال التي يجب أن نربي عليها نشأتنا و أن نتحلّى بها جميعاً توقيراً الكبير و احترام ذي الشببة و بر الوالدين. فيجب على الإنسان أن يعلم أنه سيصلُ بعد شبابه و قوته تلك المرحلة التي يكون فيها ضعيفاً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ الروم: ٥٤

و لقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم مع ما شرفه الله بمقام النبوة خير مثال يقتدى به.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

الأحزاب: ٢١

و لقد كان صلى الله عليه و سلم يوقرُ الكبير، فلما فتحت مكة و أتى أبو بكرٍ بأبيه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال رسولنا صلى الله عليه و سلم: «هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ»¹.

والآن ترى بعض الناس إذا دخل في مجلس وفيه كبير السن لا يوقره؛ فلا بد أن يكون لكبير السنِ حظٌ في التوقير أكثر من غيره، فينادى: يا والدي...، يا عم...، ويقول الكبير للصغير: يا بني، كقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَأَنَسَ: «يَا بُنَيَّ».

نجدُ في سُنَّةِ نَبِينَا، عليه أفضل الصلاة و السلام، أروع الأمثلة على كيفية معاملة كبار السنِ.

قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوقِرْ كَبِيرَنَا»²، وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْبِرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ»³، وقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لما أراد أن يتكلم اثنان أحدهما كبير والآخر صغير: «كَبِيرٌ كَبِيرٌ»⁴.

وَنَبِينَا صلى الله عليه وسلم يخبرنا أن إكرامنا لمن هو أقدمنا سنًا أن ذلك من تعظيمنا لربنا وإجلالنا لربنا، يقول صلى الله عليه وسلم:

¹ مسند أحمد (26416).

² مسند أحمد (27823)، صححه الألباني.

³ أخرجه ابن حبان (559)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (8991)، وابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (77/2)، صححه الألباني في صحيح الجامع (2884).

⁴ صحيح البخاري (3173)، صحيح مسلم (1669).

إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ⁵.

فليكن كلُّ منا قدوةً لغيره في التعامل مع كبار السن، و لا يُغْرِكْ صِغَرَ سِنَّكَ بِالمقارنة مع كبير السنّ ذي الشيبه، فاعلم أنّك بمضيّ السنين ستكون حالك مثل حاله؛ إذا فأكرم ذا الشيبه، واعرف له قيمته ومكانته، إياك أن تستطيل عليه بلسانك احتقاراً له وسخريةً به، إياك أن تترفع عليه لكونك ذا علمٍ وفقه وثقافة، فترى ذا الشيبه أقلّ شأنًا من ذلك؛ بل تزدريه وتحتقره لعلمك وحيويتك، ولكبره وقد يكون لجهله، إياك أن يُغْرِكْ جاهُك، أو يخدعك منصبك، أو يغرك كثرة مالك، فالرفق بمن هو أكبر منك سنًا؛ ليدلّ على الأدب الرفيع في نفسك فمن إجلال الله أن تكرم هؤلاء الثلاثة: ذو الشيبه من أهل الإسلام، تكريمه، ترحم كبره، تخاطبه بخطابٍ لين، تقضي حاجته، تعينه على نوائب الدنيا، تعرف له كبره وضعف قوته وعجزه عن التصرف، فكلُّ هذه الأمور تكون في فكرك، فتعامل ذا الشيبه المعاملة الطيبة، التي تنم عن رحمةٍ وأدبٍ حسن.

فتوقير الكبير مطلوب، وأعظم التوقير يكون في حق الوالد والوالدة، فهم كبار القدر، وكبار السن.

يقول الله تعالى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا

تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ الإسراء: ٢٣

و كان الأنبياء عليهم الصلاة و السلام أبر الناس بأهلهم. فهذا إبراهيم عليه السلام يدعو أباه إلى

الإيمان بالله تعالى فيقول له: يا أبتِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ

يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ مريم: ٤٢ -

٤٤

فيخاطبُ أباه بتلطفٍ و احترامٍ و هذه سيدنا عيسى عليه السلام يقول:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ مريم: ٣٢

⁵ الرواي: أبو موسى الأشعري المحدث أبو داود المصدر: سنن أبي داود الصفحة أو الرقم: 4843

و هذا رسولنا صلى الله عليه و سلم يقول لعمه يدعو للإسلام: يا عم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب: يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله. أخرجه البخاري.

يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: ليس منا من لم يرحم صغيرنا، و لم يعرف حق كبيرنا⁶.

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: ثم أمك قال: ثم من؟ قال: ثم أمك قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك⁷.

كما وردت الأحاديث الكثيرة في فضل بر الوالدين وتحريم عقوقهما ومخالفة أمرهما. عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - :
أي العمل أحب إلى الله؟! قال: "الصلاة على وقتها"، فقلت: ثم أي؟! قال: "بر الوالدين". رواه البخاري.

قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إن لي أما بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حوائجها إلا وظهري لها مطية، فهل أدبت حقها؟ قال: لا. لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك، وأنت تصنعها وأنت تتمنى فراقها، ولكنك محسن، والله يثيب الكثير على القليل⁸
أيها المسلم، الله الله في رحمتك، فالرحم لهم حق الصلّة، فكبارهم يجب أن تحترمه لرحمه أولاً، ثم لكبر سنّه ثانياً، تقدّره وتقديره، وتربّي الصغار على احترام الكبار، لا تدع الصغير يتخطى حدّه، ولا تدع الصغير يبسط لسانه بالبذاءة أو السخرية، ولا تدع الصغير يتقدّم على الكبير؛ بل ألزمهم الأدب الحسن؛ ليعرف بعضهم قدر بعض، وهكذا الأبناء أيضاً، أبناؤك تربّيهم على هذا؛ ليكون صغيرهم محترماً لكبيرهم، وليكون كبيرهم رفيقاً بصغيرهم، فإذا علم الأبناء منك أنك تقدّم الأكبر فالأكبر، وتربّيهم على هذا الخلق نشؤوا وقد ألفوا تلكم الأخلاق العالية. أظهر لأولادك عندما يزورون معك رجماً أنك تقدّم الأكبر فالأكبر.

عقوق الوالدين أيها المسلمون من كبائر الذنوب كما قال صلى الله عليه وسلم:

⁶ الراوي : ضميرة بن أبي ضميرة | المحدث : السيوطي | المصدر : الجامع الصغير | الصفحة أو الرقم | 7676 : خلاصة حكم المحدث : حسن

⁷ لراوي : أبو هريرة | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم | 2548 : خلاصة حكم المحدث : صحيح | [التخريج: أخرجه البخاري (5971)، ومسلم (2548) واللفظ له

⁸ بر الوالدين/ ابن الجوزي

أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ⁹.

إنَّ هذا الاحترامَ الصادرَ من المسلمين بعضهم لبعض و برَّهم بوالديهم لدليلٍ على الخيرِ في نفوسهم، ودليلٍ على التربيةِ والتنشئةِ الصالحةِ التي تَرَبَّى عليها الأجيالُ التربيةَ النافعةَ، وما أحوَجنا لهذه التربيةِ النافعةَ، أن يكونَ الصغارُ يعرفونَ قدرَ الكبارِ، ويجلُّونَ الكبارَ و يجلُّونَ أباءَهم و أمهاتهم، يقدِّمونهم مجلساً، ويقدمونهم جلوساً، ويبدؤونَ بهم، ويستشيرونهم، ويصنعونَ إليهم، ويرونهم التقديرَ والإجلالَ، هكذا أدبُ الإسلامِ الرفيعُ، الذي إن تمسَّكنا به نلنا السعادةَ في الدنيا والآخرة.

اللهم اجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

⁹ الراوي : أبو بكره نفيق بن الحارث | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم | 6273 : خلاصة حكم المحدث] : صحيح